● الفصل الثانى

پندنامة أو دستور الوزارة

مقارنة بينه والكتب المماثلة له.

الشك فى نسبته «للنظام» وتحليل ذلك.

أقسامه وموضوعها.

٢- بندمانة أو الوصايا:

كان ثانى المؤلفات التى نسبت إلى «النظام» هو كتاب ـ الوصايا[١] ـ وقد وردنا كسابقه بأربعة أسماء هى: بندنامة، والنصيحة، والوصايا، ودستور الوزارة... وكان اسمه الثانى تعريبًا للأول، كما كان الثالث مرادفًا له، والرابع للدلالة على موضوعه وهو ما بحثه من تعاليم وإرشادات ينبغى أن يسير بمقتضاها الوزراء وأخرى يجب أن يحذروها ليتجنبوا أضرارها ومساوئها.

وكان جامع هذه «الوصايا» ممّن ينتسبون لأسرة «النظام» كما يزعم، وقد رأى من الاعتزاز والفخر أن يجمع شتاتها المتناثر فى بطون الكتب وعلى أطراف الألسنة فى مختلف الأمكنة وعلى مرور الأزمنة[٢] لما كانت عليه تلك الوصايا من حكم بالغة تصلح كل واحدة منها لأن تكون فى الوزارة دستورًا كاملاً وفى السياسة قانونًا شاملاً[٣]، وكان قد جمعه خلال القرن التاسع الهجرى للأمير ـ فخر الدولة والدين حسن ـ الحفيد الثامن لـ«لنظام الملك»، وقد حفّزه على جمعه أن رأى الناس يقدّمون تهانيهم وهداياهم إليه، فلم يجد هديّة تعدل هذه الوصايا النظامية التى خطّها جدّه العظيم لأحب أولاده إليه فخر الملك[٤].

---

(١) طبعت على الحجر لأول مرة فى حيدر آباد سنة ١٣٠٥هـ باسم وصايا من «نظام الملك»، وأطلق «الجامع» عليها اسم دستور الوزارة فى تضاعيف مقدمته ص ٦، وكذلك عنونت لها بعض المخطوطات التى احتفظ بصور منها، وقد عرّبتها منظراً الناشر الذى يشجّعنى على طبعها فى بغداد أو القاهرة أو بيروت.

(٢) الوصايا ص ٥.

(٣) المصدر السابق ص ٥.

(٤) نفس المصدر ص ٤.

المؤلفات المماثلة قبله:

ومما يجدر بنا ـ ونحن نتحدث عن هذا الكتاب ـ أن نسلك فى دراسته نفس الطريق الذى خططناه فى دراسة سابقة لتتبيّن لنا قيمته، ومن هو مؤلفه، وزمن تأليفه من خلال عرضنا لمصادره، والكتب التى ألّفت على غراره، وبيان أوجه التشكيك فى نسبته «للنظام» ثم تلخيص موضوعه.

لم يكن فنّ النصيحة للأبناء من مستحدثات عهد ـ النظام ـ وإنما كانت وصايا الخلفاء والملوك والوزراء لأبنائهم من أروع ما توارثته الأجيال فى فنون الأدب والتاريخ والسياسة والوعظ والخبرات الخاصة منذ أمد بعيد. وقد حفظت لنا كتب الفهارس والسِير أسماء كثير من المدوّنات فى هذا الصدد فضلاً عن المنثور فى تضاعيف الموسوعات العربية كحيوان الجاحظ والعِقْد الفريد لابن عبد ربّه وأمثالهما.

ولعل أول ما عرف عن هذا الموضوع مدوّنًا بشكل كتاب هى الفصول الخمسة الأولى التى اشتهرت باسم ـ بنجتنترا ـ ثم الفصول الثلاثة فى كتاب ـ المهابهاراتا ـ فى اللغة السنسكريتية، والتى كانت هى الأصل أو المقدمة التى ترجمها وأضاف إليها أربعة فصول بناء على طلب الملك كسرى أنو شروان من وزيره ـ بُزُرْ جِمهَرْ ـ ثم عرّبها بعد الإضافة إليها أيضًا ـ ابن المقفع ـ باسم كليلة ودمنة ـ وهو كتاب فى إصلاح الأخلاق وتهذيب النفوس اشتهر باسم الفيلسوف الهندى بيدبا الذى ألّفه للملك دبشليم، وأطلق عليه اسم ـ كرطاكه ودمنكه.. ثم عرفنا بعد ذلك وصية الإمام ـ على بن أبى طالب لابنه الحسن[1].. ثم عهد ـ طاهر بن الحسين لابنه ـ عبد الله ـ التى سبق ذكرها. ثم العهود اليونانية لأحمد بن يوسف[2] وتتضمن ثلاث رسائل فى النصح خلاصتها:

(١) ابن أبى الحديد ـ نهج البلاغة جـ ٤/٤٦، وابن جرير الطبرى ـ حوادث سنة ٢٠٦هـ.

(٢) ابن أبى الحديد - نهج البلاغة حـ٤/٤٦. هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن إبراهيم المعروف بابن الداية خدم أحمد بن طولون بمصر وكان أبوه فى خدمة إبراهيم المهدى المتوفى سنة ٢٢٤هـ أخى =

أ - عهد الملك أدريانوس لابنه عندما اضطر للتنازل عن عرشه، وفيه تعرض للحديث عن الوزير والجند والحرب والحجاب والعمال والخدم، ومجالس الحكم وحضور العلماء والمال والخراج، ومنع التعدى وذمّ القتل ولاسيما صلحاء الناس، وهى عناوين لفصول، تحدث عنها «النظام» فى سياسته ووصاياه[1].

ب - عهد أحد الوزراء عندما بلغ سن السبعين وعهد بالوزارة إلى ولده وأوصاه بأمور بدأها بمراقبة الله ثم ملاحظة الملك ومعرفة أخلاقه والتحفظ فى الكلام عند مخاطبته[2] والإعظام فى مجالس شرابه والاحتراز منه فى أوقات انبساطه، والحذر من لباس ثوبه وركوب مركبه، وإذا شاورك فلا تكلمه كلام المرشد لمن استهداه ما أشكل عليه، وإذا عقّب عليك فى شبهة فلا تقبل رضاءه إلاّ بعد أن تقدم حجتك، وأره أنك لا تؤثر الحياة إلاّ ببراءة ساحتك[3]، ثم ينتقل بالقارئ فيما يتشعره الوزير مع خاصة الملك وبطانته ثم ما يتشعره مع المتطلعين إلى منزلته والحاسدين له[4]. وهى كذلك عبارات ترددت على لسان «النظام» فى كتابه وبخاصة الوصايا.

جـ- عهد أحد رجال الطبقة الثالثة وهو تاجر كبير إلى ابنه ينصحه كيف ينمى ثروته وما يجب عليه تجاه معارفه والمتعاملين معه.

ومن المعنيّين بالملك والسياسة من نظر إلى الوزارة والملوكية أنها صناعة لها قواعدها... إلخ.. وقد ذكر المترجمون لأبى الفضل بن العميد (ت ٣٦٠ هـ/ ٩٧١م) رسالة بهذا المعنى لتعلّم صناعة الوزارة والملكية.

= الرشيد وابن دايته، له كتب منها المكافأة، وحسن العقبى، ومختصر المنطق الذى ألفه للوزير على بن عيسى بن داود وزير المقتدر. توفى سنة ٣٤٠هـ (معجم الأدباء جـ ٥ ص ١٩٤، والقفطى ص ٥٦).

(١) العهود اليونانية ـ د/ عبد الرحمن بدوى بدوى ص ١٥-٦٤.

(٢) نفس المرجع ص ٤٨.

(٣) نفس المرجع ص ٤٩.

(٤) نفس المرجع ص ٤٢-٥٤.

وهناك ما يدعى بعهد ـ أردشير بن بابك ـ كسرى فارس، الذى كتبه لابنه شارحًا له: كيف يسوس الناس ويسود عليهم وينفرد بالخيرات ومنهم.. ولاشك بأن «النظام» قد أطلع على هذه كلّها، بالإضافة إلى ـ قابوس نامة ـ المعاصرة له، وبلغته، وأفاد منها ونقل عنها.

وأخيرًا ـ قابوسنامة ـ للأمير كيكاوس[1] الذى عاصر «النظام» وبها يوصى ابنه ـ كيلانشاه ـ عندما هرم ورأى اسمه فى دائرة الراحلين، فألّف هذا الكتاب فى كل فن وعلم ومهنة وقسّمه إلى أربعة وأربعين بابًا تحدّث فيها عن معرفة اللّه وخلق الأنبياء وشكر المنعم وزيادة الطاعة وحق الوالدين والولد والصداقة، ثم الآداب الاجتماعية من قواعد الضيافة وأصول لعب الشطرنج والنرد والصيد والصولجان والحب والراحة والزواج وجمع المال وشراء الرقيق والضياع والعلوم والمهن، ثم يجمل الحديث فى أربعة أبواب هى الباب العشرون والأبواب (من ٤٠-٤٢) فى شرائط الوزارة والقيادة والملك، وفيها ينصح الوزير أن يتعلم الحساب ويتعود ملازمة الصدق والنصفة مع مولاه، وأن يُرغّب الملك فى الحق والإحسان إلى الجيش والرعيّة، لأن إثبات الملك بالجند وعمارة القرية بالدهقان، وامتلاك الجند بالمال وحصول المال بالعمال.. وتكون العمارة بالحق والعدل والإنصاف[2].. «واتخذ وزيرك شيخًا إذا صرت ملكًا سواء أكنت شيخًا أم شابًا، ومكّن من أسندت الوزارة إليه، واعط العمل للجديرين به، فإن لكل عمل رجال، ولكل مقام مقال، ولا تجعل الجند من جنس واحد فيكون الملك

---

(١) هو كيكاوس بن إسكندر بن قابوس بن وشمكير من الأسرة الزيارية التى حكمت طبرستان وجرجان وتمكنت من بسط سلطانها على همدان وكيلان إلى أن استولى السلاجقة على هذه البلاد سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م فصاروا يحكمونها كولاة من قبلهم وكان حكم كيكاوس مؤلف الكتاب من سنة ٤٤١-٤٦٢هـ، ثم خلفه ابنه -كيلانشاه - الذى ألّف الكتاب من أجله من سنة ٤٦٢-٤٧١هـ، ثم خلع ومات سنة ٤٧٠-٤٧١هـ (مقدمة قابوسنامة).

(٢) قابوسنامة ف ١٤ الأصل الفارسى.

أسيراً لهم، وادع فى كل وقت كبراء الجند إلى طعامك ونبيذك وأحسن إليهم بالخلع والآمال، ولا تسلطهم على رءوس الرعايا»[٢]. فهو كتاب هدفه الإرشاد والوعظ والتعليم فى شئون الحياة الاجتماعية وليس فى السياسة كما فى وصايا «نظام الملك».

إن التشابه كبير بين ـ وصايا «النظام» ـ ونظائره من مؤلفات سبقته أو عاصرته، ويبدو لقارئها واضحًا حتى لنجد بعض الجمل معادة إن لم تكن بألفاظها بعد تعريبها وإلاّ فبمعانيها مما يقوّى دعوى الشك فى نسبة الكتاب إلى «النظام». وعلى الرغم من ذلك فإن الفروق الكثيرة التى بينها ولا سيما ـ قابوسنامة ـ لا تؤيد دعوانا بأنه قد اطلع عليه وأخذ منه، إذ من الجائز أن يكون الاثنان قد أخذا عن مصدر آخر، وبخاصة بعد أن عرفنا بأن هناك كتبًا فى الموضوع مثل كتاب العهود اليونانية وغيره، وأنها ربما كانت منتشرة فى أوساط المثقفين ولعلهم استعانوا بها بمقدار الحاجة إليها.

يضاف إلى ذلك القول: بأن الكتاب جُمع بعد عصر «النظام» بأربعة قرون، وأن جامعه قد استخرج مواده من بطون الكتب واعتمد فى قسمها الآخر على السماع، وأن المصادر التى رجع إليها مؤلف الكتاب والتى ذكر منها: دستور الوزارة لمحمد ناصحى[٣]، وتاريخ مدرسى النظامية لأبى حنيفة البصرى[٤]، ومنتخب فضلى الهروى[٥]، من الكتب الضائعة التى لا نعرف عن حقيقتها شيئًا، ثمّ من هو فخر الدنيا والدين ومن هو جامع الوصايا؟.. كل هذا ممّا يرجح ميل القائلين بالتشكيك فى نسبة الكتاب إلى ـ نظام الملك ـ.

---

(٢) المصدر السابق ف ٤٢.

(٣) الوصايا ص ٥.

(٤) الوصايا ص ٦.

(٥) الوصايا ص ٩.

على أن عام تأليف الكتاب أو تثبيت أصوله على الأقل موضع ريب أيضًا، إذ الشائع عند الكثيرين أنه قد وضعه فى أخريات أيامه بناء على الأحداث التى سجلها فيه واستنادًا على زعم جامع الوصايا فى مقدمته[1]. . وفوق ذلك فهناك نص ورد على لسان «النظام» وهو يتحدث لابنه عن خيانة صاحبه ـ الحسن بن الصباح ـ وكيف أحرجه أمام السلطان بإمكانه عمل ميزانية الدولة فى عُشْر المدة التى طلبها «النظام»، ثم قدّمها فى الوقت المعين ولكنه أخفق فى النهاية، فلم يجد طريقًا يدارى به فشله سوى السفر. . إلى أن قال: «وكان هذا اليوم راجحًا على ثلاثين سنة قضيتها فى الوزارة: فرزند غرض أزاين تقرير آنست كه بِيَكْ روزة ميعاد تسليم دفتر وميقات عرض آن برسى ساله وزارة راجح بود».

فإذا صحّت نسبة هذه القولة «للنظام» وهى فى الأغلب صحيحة، فإنه من غير شك يحدد الوقت الذى وضع فيه أصول كتابه على الأقل، إذ المعروف لدى المؤرخين أنه استوزر عند اعتلاء السلطان «ألب أرسلان» العرش سنة ٤٥٥هـ، ولئن رجعنا إلى السنوات التى اشتغل فيها مع الأمير ـ ألب أرسلان ـ قبل سلطنته، فلابد أن يكون لهاتين الملاحظتين أثرهما فى تحديد فترة تأليفها ما بين ٤٨٠-٤٨٥هـ وهو ما يجمع عليه المؤرخون تقريبًا.

غير أن هناك نصّا ثانيًا فى الكتاب يعود بنا إلى عدة سنوات قبل هذا التاريخ، فقد ذكر وهو ينصح ولده ويشرح له مخاطر الوزارة: فى قضية عودة السلطان ـ ملكشاه ـ من قتال «شمس الملك خاقان» وتعقب أثره إلى تركستان ـ ومكوثه فى الرى فى فصل الشتاء لتحشيد الجيوش والزحف على الشام فى الربيع إلى أن يقول: «ومن ذلك التاريخ وحتى يومنا هذا مضت سبع سنين والسلطان محمد بن ملكشاه يريد الاستيلاء على خراج بسطام لمجرد كلمة والده السابقة قبيل وفاة ابنه (ونا أمروز آن تاريخ هفت سال أست سلطان محمد

---

١ - الوصايا ـ المقدمة.

ميخواهد)»[1]. . ومن الثابت فى التاريخ أن مقاتلة الشاه للخاقان وعفوه عنه بشفاعة ـ تكين سلطان ـ واعتذاره له كانت عام (٤٦٧هـ) كما ذكر ابن أبى الفوارس الحسينى[2]. وعليه يكون حوالى سنة ٤٧٤هـ كان قد وضع أسس كتابه أو طلب حضور أكبر أبنائه فخر الملك ونصحه بتلك الوصايا التى جمعت ونظمت مع إضافات وحذف فيما بعد. وهذه هى المرة الثانية التى سار فيها السلطان ملكشاه لمحاربة ـ شمس الملك ـ إذ المرة الأولى سنة ٤٦٥هـ والثانية سنة ٤٨١هـ، وكلاهما بعيدة الاحتمال أنها المقصودة من حديث «النظام»[3].

....والذى يميل بنا فى ضوء ما أبنّاه أن الضجر من منصب الوزارة أخذ يتزايد فى نفس الوزير الوالد على مرور الأعوام، وتفاقم أسباب الخلاف بينه وبين السلطان وأنه منذ بدأت السعايات ضده فلا يجد لصدّها أو تخفيفها حيلة، ولا فى مقابلة سلطانه أثرًا حسنًا. كان حينئذٍ لايريد لابنه هذا المركز الخطير المحفوف بالدسائس والمناوئين، وأخذ يفكر فى بذل النصح له فى كل فرصة مواتية، وفى حالتى بعده عن الوزارة أو قبولها، وأخذت المعلومات الخاصة والعامة تتجمع فى ذهنه وبعث إليه بعضها بشكل رسائل، ومنها ما ضاع وعفت عليه الأيام، ومنها ما بقى كما سنشير إليه فيما بعد إلى قبيل وفاته.

وغير بعيد أن تناقلت الألسنة قسمًا منها كما نقلت أقلام الخطّاطين قسمها الآخر وكان من هؤلاء وأولئك من يعنى بحفظها وحكايتها لأنه ممن يمت إلى صاحبها «النظام» بنسب[4]. . إلى أن حصلت الحاجة الملحة إلى جمعها وتنظيمها وتقديمها للأمير ـ حسن ـ وربما جاز لنا أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنميل إلى أن الوصايا كانت مجموعة بين دفتى كتاب صغير ينقصه بعض

---

(١) الوصايا ص ١٨ فى الأصل.

(٢) أخبار الدولة السلجوقية ـ حوادث سنة ٤٦٧هـ.

(٣) مرآة الزمان ـ حوادث سنة ٤٦٥، ٤٨١هـ.

(٤) الوصايا. والصواب «الملك تكش» وهو شهاب الدولة تكش أخو السلطان ملكشاه الذى فوّض إليه إمارة خراسان.

التبويب والترتيب إلى أن هيأت الظروف ـ لجامعه ـ فقسّمه إلى مقدمة وفصلين وأضاف إليه من مقروءاته ومسموعاته ما ربط بين فصوله وترجم به «للنظام» بإيجاز، وإلاّ لما ذكر الكتاب ونقل عنه من المؤلفين من توفى قبل القرن التاسع الهجرى[1].

والشيء الأخير الذى يدفعنا إلى القول بصواب نسبة الكتاب إلى «النظام» أسلوبه وموضوعه، فإنه من حيث الأسلوب كان كسابقه مجموعة من الأحاديث الممتعة النافعة بقدر ما هى مؤثرة تنم عن إخلاص الوالد وعطفه وحرصه على مصلحة ولده ومنفعته وكان فى حديثه مسترسلاً دون تكلف متسلسلاً من غير توقف، بل يثبت لديك وأنت تستمع إليه أنه حديث أب مجرّب شفيق، يدلى بخلاصة خبراته وعصارة عواطفه من غير خشية رقيب، فهو يصارحه فى أحداث كانت من قبل أسراراً ويكشف له الحجب عن نفوس المتنفذين والحاشية وأطماعهم وبأسمائهم مما لا يمكن أن يصدر عن غير «النظام» لغير ولده الذى يحبه ويطمئن لإخلاصه[2].

وزيادة على ذلك فالوصايا تشبه فى أسلوبها كتاب «السياسة» فإن تقديم الفكرة ثم الاستشهاد بالحكايات والتمثيل بقصص موجزة أو مطولة تنتهى ببيان القصد عن إيرادها كما فى سياستنامة وتكرار وتشابه بعض العبارات مثل: «وغايتى من إيرادها هو كذا. . . .»[3] ثم الاستطراد إلى أشياء أخرى والعودة إلى الموضوع فقد يروى قصصًا من التاريخ كما يروى حكايات حدثت له وقد يأتى بالأساطير من القصص ومن هذه ما لا يصدقه العقل ولا يقبله المنطق، ولئن كانت من المصادفات فهى من أغربها وإن كانت من أقدار الغيب فإنها من أعاجيبها مثل ما فعل فى كتابه ـ السياسة ـ وهى فى وصاياه أكثر عددًا وأمعن خيالاً، وأشد غرابة، فمن ذلك قصص فتحه قلعة ـ إصطخر ـ بفارس وغيض

(١) الوصايا، وأغا بزرك فى مخطوطته من «الذريعة فى تصانيف الشيعة».

(٢) الوصايا ص ٢٧-٣٠.

(٣) الوصايا ص ٢٧.

مياه الآبار فيها[1] وكيفية استيلائه على قلعة ـ مريم نشين ـ والزلزال الذى أسقط أسوارها[2] ثم حكاية التقاط الطائر لحمائل إحدى جوارى الأمير إسماعيل السامانى. وما أن تعقبه الفرسان حتى رماها فى بئر، وما أن نزلوا فيها حتى وجدوا بعض الصناديق من خزائن «عمرو بن الليث الصفار» التى هرّبها ـ سام ـ وأخفاها فى حدود هرات. كل هذا يحكيه فى سبيل إثبات أن الأمر بيد اللّه يؤتيه من يشاء، وما يصيب الإنسان من توفيق فمن اللّه يمنحه لمن يريد، وإنّ نقض العهد شين والوفاء به والبقاء عليه أوفر نفعًا وأكثر خيرًا حتى ليحسّ القارئ للكتابين بأن ثانيهما متمٌ للأول بشكل عام. وفى موضوع الوزارة على الأخص فهو يحدثنا فيه عن خطورة هذا المنصب وشرائط القائمين به وواجباتهم وصلتهم بالسلطان وحاشيته والناس مما ينقص سياستنامة.

وقد اختار «النظام» لعرضه الأحداث أسلوبًا خاصًا جعل منه نموذجًا لآداب الحديث والحوار بين الوزير والسلطان فكان كتابه «الوصايا» وكذلك «السياسة» فى بعض فصوله قواعد فى السياسة العملية كما يسمونها، إذ تعرضت لأصول فن الدبلوماسية ـ الإتكيت ـ ينبغى أن يسير عليها الحكام فيما بينهم وعلى اختلاف درجاتهم، ولم يفته تطبيقها فى محادثته للسلطان ومحاورته لابنه، إذ إن لطريقة العرض عند «النظام» أهمية كبرى فإذا كانت حسنة كانت النتيجة خيرًا وبخاصة فى أعمال السلطان، وبذلك يمكن للنديم أن يتدخل فى كل شىء وإن لم يكن واجبًا عليه فإنه يستحبّ فى كل من يحضر مجلس السلطان أن يتعلم الحساب والتاريخ ويتخذ أسلوب التلويح والتلميح فى عرضه للقضايا والمهمات بدلاً من التصريح والمجابهة فى إبداء المشكلات[4].

أمّا من حيث موضوعه فهو كذلك يشبهه من ناحية ويكمّل سلفه من ناحية

(١) الوصايا ص ٣٨.

(٢) الوصايا ص ٤١.

(٣) الوصايا ص ٤٥.

(٤) الوصايا.

أخرى، وإن كان ذلك فى السياسة، وهذا فى الوصايا إلاّ أننا إذا اطّلعنا على موضوعه وجدناه فى الوصايا السياسية إن صحّ هذا التعبير.. وهذا وذاك ما يدعونا إلى تلخيصه:

أقسامه وموضوعه :

لقد قسّم كتاب «الوصايا» إلى مقدمة وفصلين وقد ضمّن المقدمة موجز سيرة «النظام» وقارن بينه وبين سائر الوزراء وفضّله عليهم ولاسيما الفرس منهم. وذلك بالرجوع إلى ما كتب السلف فى أحواله وإلى إعداده العلمى والخلقى فى مختلف الفنون وتباين الظروف حتى وضعه ـ أبو حنيفة البصرى ـ فى كتابه «تاريخ مدرسى النظامية» فى عداد علمائها بعد الغزالى والشيرازى[1]. كما ضمّن الفصل الأول تحريض ولده على ترك الوزارة وبيان مخاطرها.. والثانى آداب الوزارة وشرائطها إذا لم يكن بدٌّ من الاشتغال بها[2].

والذى يبدو أن جامع شتات هذه الرسالة والمؤلِّف بين أجزائها كان ـ كما تدل مقدمته ـ من ذوى الثقافات الاجتماعية والدينية، ومن أصحاب الفكر المنطقى إذ نراه يعرض آراءه على أساس البرهان المؤلف من مقدمة ونتيجة، فهو فى صدد إثبات الضرورة لإيجاد الحكومة والقانون.. مثلاً يقول: «إن الكمال الإنسانى لايكون إلاّ بالمعرفة، وهذه تتوقف على الأمن والاطمئنان، وهما يحتاجان إلى انتظام أمر المعيشة، وهو يتعلق بمشاركة أفراد النوع وتعاونهم»[3].

ثم يفصّل فكرة التعاون ويبيّن أنه لا يتم إلاّ بالعدل، ويشرح كيف أن العدل لا يتحقق إلاّ بتطبيق بنود وضعها ذوو الطبائع السليمة وهى الدستور، وهذه هى الشريعة بجوهرها النقى الخالص.. ثم يوضح أن الشريعة بحاجة إلى حامٍ يحميها وناصرٍ يدافع عنها، وهذا هو السلطان الذى تُحْترم الشريعة بهيبته وتثبت بقوته وبأسه.

(١) الوصايا ص ٦.

(٢) الوصايا ص ٥.

(٣) الوصايا ص ٣.

وحينما ينتقل لإثبات أهمية منصب الوزير بالنسبة إلى السلطان يقول: «إن لكل شيء أساسًا يعتمد عليه وأساس السلطنة وعمادها الوزارة وعليها ومنها يستمد الإنسان الكمال الذى به سعادته». . وهكذا يصل بين خاتمة ما انتهى إليه ونهاية ما بدأ به من حديث حول ـ الكمال ـ الذى ينشده الإنسان مادامت الحياة. . وهى فكرة استمدّها من المقدمة التى مهّد بها «النظام» لكتابه «السياسة»، ثم أشار إليها فى عدة مواضيع منه ومن «وصاياه».

يبدأ «النظام» وصاياه لابنه ـ فخرالملك ـ بتحسّسه فى دنو أجله وقرب ساعة ارتحاله ومقدار حبّه له، وإنّ واجب المروءة نحوه فيما وراء محبة الأبوة والبنوة يدفعه لأن يرشده إلى ما انكشف له من: «عند العالم الربانى والملهم الرحمانى»[1] يرشده وفى نفسه شك من قبول ابنه لنصائحه لأنه لما يزل شابًا، وأنه حينما كان فى مثل سنّه لم يرعوى لنصيحة مشير ولم يصدق ـ فى مثل هذا الموضوع ـ قولة خبير. . ومع ذلك فإن عطفه يدفعه لأن ينصحه بترك الوزارة إن دعى إليها بعد موته، وأن يتمسّك بأذيال القناعة، غير آبه ولا منخدع بمغريات الدنيا، لأن لذاتها فى الأولى لاتقاس بحسراتها فى الأخرى[2].

ثم يقول له: «واعلم بأن الوزارة منصب خطر، وإن بدا لك سلطنة ثانية، وإن تفصيل إحدى مخاطرها يحتاج إلى سِفر كبير، وإن أولها إصدار الأحكام المتباينة فى كل يوم، وفى كل موضوع، ولكل شخص، وإن الحكم الإلهى انما هو فى قوله: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾»[3].

ثمّ استشهد بدولة المائة سنة[4] وكيف تناقضت أحكامها وعجزت عن تطبيق أوامرها وفق المناهج الحقّة، مع أن هذا ممكن عقلاً بعد التأييد الإلهى، وإن كان صعبًا حتى ليكاد يكون مستحيلاً من غير ذلك.

---

(١) الوصايا ص ١١.

(٢) الوصايا ص ١١، وهو يقصد بها إمارة البويهيين.

(٣) سورة النساء ـ من الآية ٥٨.

(٤) الوصايا ص ١١، وهو يقصد بها إمارة البويهيين.

ثم يسترسل فى تفاصيل مخاطر الوزارة من ناحية مطابقة الأوامر لأحكام اللّه وكيف كان يساوره الخوف فى هذه الحالة، حتى مرض مرّة حينما أصدر أمرًا بإحالة بستان ورثها قاصرون إلى الديوان، فشهد حلمًا مفزعًا لكثرة وساوسه وتفكيره، ولمّا شفى بعد أيام تصدق على الفقراء وعوّض الأطفال وشكا حاله للشيخ - أبى إسحاق الشيرازى - وطلب إليه أن يخبره في ذلك، فكان جواب الشيخ له: «إن لم تكن هذه المخاطرة لكان الوزير من الأولياء، وكانت الوزارة مرتبة المقربين والصديقين والأصفياء».

ومشكلة يتلقاها الوزير فيذهل لها بعد مشكلة الحكم والحق، ويحير فى حلّها وهى مشكلة رضا السلطان، فإنه مهما بذل من جهد وإخلاص وتفكير يعجز عن بذله الآخرون، بحيث لم يستطع السلطان اتهامه بالتقصير نحوه وإشاعة الرحمة فى الرعيّة والعجز عن تدبير الأمور، فإنه يحس بشعوره الصادق: إن مزاج السلطان لايخلو من جانبه بكدر فيلجأ إلى رفيق صباه وصديق شيخوخته - إمام الحرمين الجوينى فيبسط له معضلته هذه ويجيبه الإمام: «أنه من العجب العجاب أنك لا تعلم منزلة المال والملك فى نفوس الناس وبخاصة السلاطين والملوك وقد جعلتها تحت تصرفك»..

ثم يبين له شكوك الملوك وتزايدها بتوالى الأيام إلى أن تصبح يقينًا، لأن مطالبهم تختلف باختلاف أعمالهم، فعلى الوزير ألا يكدّر خواطر الأعيان والأشراف فيشكون الى السلطان وأن يكون موقفه في مجلس السلطان موقف البصير الحذر فلا يذكر شيئًا إلاّ ايماءً وتلويحًا، ولا يشكو أحدًا إلاّ باشارة عابرة، وإذا ظهر من أحد ملازميه ما يسىء إليه أو يزرى بسمعة الدولة وشئون المملكة أعلنه وعاقبه، وإذا رأى السلطان شدة أخفاها وأسرّه. وفى القناعة من هذه الشكوك راحته، وإذا قرنت بطاعة اللّه وعبوديته كانت هى النعمة.. ثمّ يذكر قصة الفضل بن الربيع وزير الرشيد، وكيف طلب أن يكون أميرًا للحج وصاحب المحمل، وبعد عودته كيف التزم العزلة وفرّغ نفسه للعبادة وفاز براحة البال حتى زاره الرشيد فى زاويته، وقال له: «إن كنت قبل هذا فى خدمتى

فاليوم دونه، وفى اللّه أخى». فأجابه الربيع: «لو كنت ملازمًا بلاطك طول عمرى ما وصلت إلى هذه الرتبة فعليك بالقناعة (يابنى) ولا تغرنَّك من هذا المنصب حلاوته فى البداية فإن مرارته فى النهاية».

ثمّ ينتقل بابنه إلى مخاطرة أخرى هى غضب أولاد السلاطين واستدراك عواقبه[1] ويستشهد لذلك بحكاية السلطان ملكشاه عند عودته من قتال ـ شمس الملك خاقان ـ وملاحقته من تبريز إلى تركستان ومكوثه فى الرى لجمع عساكره والتوجه إلى فتح الشام فى الربيع فبلغه الخبر بميلاد حفيده ـ بايزيد بن محمد ـ فسرّ لذلك وخصّص له خراج بسطام إلاّ أنه مات بعد يومين وبقى أبوه يستولى على خراجها سبع سنوات دون أن يجرأ أحد على ذكر هذا أمام السلطان. واستمر «النظام» يدفع خراج بسطام لولد السلطان من أملاكه الخاصة خشية اتهام السلطان له بالإهمال أو بسوء الإدارة وخوفًا من غضب الأمير إذا انقطع عنه المال. ومع ذلك لم يرض لأن فى رضا أبناء الملوك كساد الحال وفساد المال، وإن أهمل أو تساهل فى رغباتهم عن علم وقصد اتّهم بالتقصير والخيانة والجهل[2].

وينتقل بالحديث إلى تفصيل مخاطر الولاة وكبار رجال الدولة الذين لابد من مخالطتهم ولايمكن معاداتهم، ولكن معاشرتهم محفوفة بالأخطار ومناوأتهم تجلب الأضرار، والأنكى من سخط هؤلاء غضب السلطان لأنه لا يرضى بصداقة الوزير للأعيان ويعّدها من مظان السوء ودلائل الاتهام، ثم يورد مثلاً على ذلك بقصة زيارته لألتون تاش وكيف نقلتها ألسنة السوء فغيّرت من نوايا السلطان نحوه[3] مع أن ألتون تاش ـ من التركمان الجهلاء الذين اختلف معهم فى أمور البلاط كثيرًا لدرجة الاستقالة، ثم يردفه بقصة أبى العباس

(١) الوصايا ص ١٧.

(٢) الوصايا ص ١٨.

(٣) الوصايا ص ٢١.

الإسفراييني وزير السلطان محمود ونهايته المؤلمة بسبب عدائه للحاجب الأمير علي الخيشاوند ـ ليستدل بها على النتائج السيئة من معاداة أصحاب القدرة والنفوذ[1].

ثم يلفت نظر ولده إلى طبقة الكتّاب وأرباب الأعمال والسفراء وأمناء السر ويشبههم بالنسبة للوزير كالجيش بالنسبة للسلطان لا تستقيم أموره دون تعاون هذه الفئة ومساندتها، وقد تكون حياته مهددة بالخطر إن جفاهم، فعليه أن يكثر الهدايا، وأن يقدم من يستحق التقديم.

ثم ينعى عليه تقليد الأعمال إلى الأقارب والأتباع، فإن هذا عين الخطأ لأنه قد ولّى إخوته الأقاليم لكفاءتهم وأمانتهم.. فقيل: إن الخواجة قد قسّم الأمصار بين أولاده، وأول من استغل ذلك حرم السلطان بسبب تفضيله «بركيارق» لرشده ونضوج عقله على ابنها ـ محمود ـ فأثّر كلامها في حفيظة السلطان ودخيلة نفسه[2].. وعليه فإن تفويض الأمور إلي الأقرباء يكون مدعاة للاتهام ودليلاً على الخيانة، وإلى الغرباء يكون وسيلة للتآمر وقلب الحكم كما رأيت من «ابن الصبّاح» الذى لا أزال أتحمل منه ماتعلم، ولا أعلم ما سيئول إليه الأمر فيما بعد. وهنا يفصّل حكاية اتصاله بالخيّام وابن الصبّاح في مجلس الإمام ـ موفق النيسابوري ـ وقصة العهد بينهم ومقابلته لكلّ منهما مراعيًا عهد الصبا ثم خيانة الصبّاح وخروجه من البلاط[3].

وفى الفصل الثانى من الوصايا يتحدث «النظام» عن آداب الوزارة كمن وثق بأن ابنه راغب فيها مغرور بمظاهرها ومفاتنها غير آبه لمخاطرها ومآسيها.. لذلك يرى لزامًا عليه أن يرشده إلى واجبات الوزير وصفاته ثم يفصّلها له بنقاط أربع:

---

(١) الوصايا ص ٢٤-٢٦.

(٢) الوصايا ص ٢٧-٣٤.

(٣) الوصايا ص ٢٧، ٢٨.

واجبات الوزير وصفاته :

النقطة الأولى: رعاية جانب اللّه:

وهذه تكون باليقين الراسخ والابتعاد عن تمويهات المبتدعة، وتقولات الفرق الضالة وأداء الفرائض وإدامة الطاعات والعبادات والتزام محاسن الأخلاق، واجتناب ذمائم العادات واعتقاد أن التوفيقات الحسنة إنما هى بفضله تعالى، والاعتراف بذلك من كمال الإيمان.. ثم يورد حكاية الوفود لإبداء فروض الولاء للخليفة ومنحه خلعة مطرّزة باسم ـ الوزير العادل العالم «نظام الملك» رضى أمير المؤمنين ـ وسير الناس على أرجلهم وبقى هو راكبًا، ولم يفكر أو يتحيّر، ثم رؤياه ثلاثة أيام تتجسم له الصفات بأشخاص ذوى رائحة كريهة، والحسنة بأوجه منوّرة، وفى انتساب التوفيق فى كل شىء إلى اللّه حيث يحكى لنا قصة فتحه لقلعة ـ إصطخر ـ وسقوط قلعة ـ مريم نشين [1].

النقطة الثانية: رعاية جانب السلطان:

وفيه يتحدث عن لزوم اطاعته كما يطيع اللّه، ويورد قصة ابن أعلم وتلميذه ـ ناصر التبانى[2] ـ ثم طلب رضاه، وإذا حصل ما يخدش عاطفته فعليه بتدبير ملكى وآخر مالى، ففى الأول: يرعى جانب الأصدقاء ويحذر جانب الأعداء، وعدم نقض العهود، وفى الثانى: يفكر فى حل الأزمات المالية للخزينة، ويستشهد لذلك بقصة إسماعيل السامانى وإعطائه الأمان لأهالى هرات.. والثانية إرساله مائة من متعهدى الممالك بإرسال ألف دينار لتسديد نقص خزينة ـ كيو ـ ثم العمل على دعاء الخير له وهذا يكون بالعدل والإحسان، ثم الذكر الجميل له وهذا يكون بإظهار حسن سيرته وإعلانه عدالته. وبعد تفصيل طويل يوصى بألاّ يعتمد على تقرّب السلطان وتبسطه معه وعنايته، وإنما يجب زيادة

---

(١) الوصايا ص ٤٠-٤١.

(٢) نسبة إلى بيع التين أو التبن، وربما كانت النسبة إلى درب التبانة وهى المجرة نظرًا لاشتغاله بالرصد وعلم النجوم.

الحذر منه كلما زادت عنايته، وأن يعرف ميوله لإشباعها. أمّا إذا رغب السلطان شيئًا مخالفًا للمصلحة العامة ومنافيًا لطريق العدل فيجب ألاّ يمنعه ويدفعه صراحة، وإنما بضرب الأمثال والقصص التى تعرض الأضرار والمفاسد لتكون بذلك محترمًا لمقام الملك وموافقًا لمزاجه، وفى هذا تتم المصلحة العامة ويلقى على مسامع السلطان قصتين من أجل ذلك[1].

وعلى ابنه لمعرفة ذلك أن يتعلم فنونًا منها الحساب والتاريخ لأن حوادثه تتكرر لأننا نستفيد منها أشياء كثيرة.. ثم يحكى قصة ـ منصور السامانى ـ وكيف وقع فى مكيدة ـ ألبتكين ـ ومنها نستفيد أن تتبّع العدو إلى وادى لا نعرف عنه شيئًا خطأ كبير، ثم يحكى له قصة المناقشة بين قاضى مرو، والإمام جمال الدين خجندى من علماء ما وراء النهر حول ألفاظ الخالق والبارئ والمصور، وهل تتحدّ فى معناها أم لا. وأورد لهم مثلاً فى التاريخ عن «المظلة» وكيفية تطور صنعها فى عهد ـ بهمن ـ فكان بذلك موجدها، وأردشير مصورها، وبوشن خالقها[2].

النقطة الثالثة: رعاية جانب المقرّبين:

وفى هذا الموطن يؤكد على ابنه ضرورة رعايتهم بل يجب أن تكون أقوى من رعاية الملك لأن أكثر المفاسد تأتى عن طريقهم، ثم يصنّفهم إلى أربع طبقات حسب أهميتهم: وأولها خطورة: هى الزوجات ولاسيما المقربات. وثانيها: الأبناء وخاصة الكبار. وثالثها: الأمراء وعلى الخصوص العظام، ورابعها سائر الملازمين.

وأول شرائط رضا هؤلاء جميعًا وهى كثيرة ـ ثبات الوزير على الصدق ـ وملازمة الصواب بحيث لا ينال منه مخلوق، وحينما لايكون الشخص مخلصًا مستقيمًا يكون الصديق كاذبًا حين يثنى عليه، والعدو صادقًا حين يذمه. أمّا إذا كان صادقًا أمينًا فإن مجال الامتداح للأصحاب واسعًا، وطريق الانتقاص للأعداء ضيقًا، وينتقل إلى تفصيل ما يجب نحو كل طبقة:

(١) الوصايا ص ٤٢-٥٤ (فارسى).
(٢) الوصايا ص ٥٣، ٥٤.

أ ـ الحريم: فيذكر أن استشارتهن لم تكن من تقاليد الفرس، وإنما هى من عوائد التركمان أخذها السلاطين عن ملوك تركستان، لأنهم تربوا فى الأصل على أيديهم وجروا على خطتهم، لذا كان ضروريًا الاحتفاء بهن من غير الاختلاط بحاشيتهن، كما يجب الاحتراز من التردد على واحدة منهن دون الأخرى وإخفاء رعايته لإحداهن حتى تتصور الواحدة أنه يختصها بعواطفه دون غيرها. وهذه القاعدة تصدق على أغلب الناس، وعليه يجب السعى لاكتساب ودّهن حتى يبدأن بالحماية ويبادلن الوزير الرعاية.. ويورد لذلك حكاية فرار الأمير ـ ألتون تاش ـ من وجه ـ جميلة القندهارية ـ وانزوائه فى إمارة خوارزم، لأنه عجز عن مداراتها لإرضاء السلطان ـ محمود ـ حتى أنه ما عقّد أمرًا إلاّ حلّته، وما حلّ مشكلاً إلاّ عقّدته، وما عقّدْت شيئًا إلاّ استعصى عليه حلّه، وما حلّت موضوعًا إلاّ عجز عن عقده[1]. ومن هنا ظهر مقدار الضرر فى مخالفتهن.. أمّا نفع مجاراتهن فلا نهاية له لأن حماية أى شخص فى البلاط تكون بمقدار أثره فى مزاج السلطان وليس من يباريهن بهذا الخصوص..

وعليه فحماية الحريم حرز حريز، وحصن حصين[2]. ثم يورد حكاية ثانية للغرض نفسه خلاصتها: أن السلطان ـ محمود ـ لم يكن على وفاق مع وزيره الخواجة ـ أحمد حسن الميمندى ـ فى أواخر أيامه، وكان ممن يتربص ذلك ليفيد منه الخواجة ـ حسنك ميكائيل ـ ليحل محله الأمير التونتاش السابق الذكر ـ وقد أشاعا عنه تقولات كثيرة، ولكن لم تصبه بضرر لأنه كان فى حماية زوجة السلطان الجديدة ـ مهد جكَل ـ ابنة ملك تركستان والجارية ـ جميلة القندهارية ـ وقد حاولا مرة اتهام الوزير بالاتجار، وقبضا على التاجر وقدمّاه للسلطان ـ محمود ـ ولكنهما عادا بالفشل بفضل الحيلة التى دبرتها زوجة السلطان وجاريتها ودعواها أن البضاعة لها وهى هدايا لأقربائها من الرجال والنساء حتى غضب السلطان على المخبرين وأراد قتلهم لولا توسطها[3].

(١، ٢، ٣) الوصايا ص ٥٦، ٥٧.

ب ـ **أبناء الملوك:** ويقسّمهم إلى صغار وكبار، ويجب عند «النظام» رعايتهم جميعًا وبخاصة الصغار لأن للعناية بهم نفعٌ خاص، إذ يحتلون مكانة عظيمة في نفوس آبائهم، ولأن الملوك يحملون ذلك على شدة الإخلاص لهم، وليس على محمل الخوف أو الرجاء. . أمّا الكبار فيجب عدم التقصير في جلب رضاهم وكسب ميولهم والاكتفاء بقليل من اللقاء بهم في مجلس السلطان وجلب ما يرغبون فيه لإدخال السرور إلى نفوسهم لأن الضرر من سخطهم والنفع في رضاهم حاصلان في أكثر الدول، ويأتي بشاهد على ذلك حكاية الخواجة ـ أحمد حسن ـ وحسنك ميكائيل ـ بعد وفاة السلطان ـ محمود ـ واحتدام الخلاف بينه وبين وريثيه ـ محمد ومسعود ـ واستيلاء الثاني على الحكم وقضائه على الوزير حسنك واستيزاره أحمد حسن ـ بفضل علاقته الحسنة معه من قبل[1].

جـ ـ **القواد والأمراء:** ومهما تكن منزلة الوزير وقدرته وسطوته في الدولة فانه لا يستغني في بسط نفوذه عن رضا الأمراء وتأييدهم له. وهكذا كان الحال في العصر الساساني حتى عهد ـ يزدجرد ـ وكذلك في عصر الدولة الغزنوية، فقد تضعضع مركز الخواجة ـ أحمد حسن ـ على عظمته بسبب معاداته للأمراء وسوء تصرفه مع نوابهم، لذلك وجب إعزازهم حسب درجاتهم[2].

ثم يفصّل لابنه ـ وزير المستقبل ـ ما يجب عليه نحوهم من زيارات في المناسبات، وتسامح معهم في المخالفات، وأن يتلطّف مع كل واحد منهم إذا قصَّر ويزيد النفع إليهم إذا قلّ وعسر، وألاّ يحاورهم إلى درجة المجادلة. . وأن يمنع الأذى عنهم عند وقوع النازلة. . ثم يورد قصة في ذم الشماتة وسوء عقباها جرت لدبشليم الحكيم المرتاض الذي عيّنه السلطان محمود حاكمًا لسومنات فأراد الثأر لنفسه والانتقام من أحد أقربائه فلقي سوء العاقبة نتيجة لسوء نيّته وفساد طويّته[3].

(١، ٢) الوصايا ص ٦١، ٦٢.
(٣) الوصايا ص ٦٤.

د ـ سائر الملازمين: وقد صنّفهم إلى ثلاث طوائف:

● الندماء: وهم لا اعتبار لهم بنظر «النظام» وإنما يجب أن يرعى جانبهم وأن يتجنب ايذاءهم وتعكير خاطرهم من أجل خاطر السلطان، لأن دخولهم وخروجهم وتحدثهم معه يعتبر رتبة عالية، ولاحتمال صلتهم بأحد المغرضين. وإيقاف ضررهم المتوهم واجب عقلاً قبل استفحاله، لأنه كالشرر فإذا أهمل أصبح نارًا شديدة يصعب إطفاؤها، ويمثل لذلك بحكاية ـ الفضل بن الربيع ـ لأبى الحسن حينما رأى فى المنام شخصًا فصارعه ورماه إلى الأرض فلمّا جاءه للمرة الثانية لم يهتم به فغلبه وكاد أن يهلكه حتى استيقظ من نومه ولمّا سأل عن تفسيره: ما هو؟.. قيل: هى ذنوبك، وكذلك العدو إن لم تهتم به تعذّر دفعه[1].

● أرباب السيف: وأثرهم فى إصلاح الوزارة وإفسادها قليل نسبيًا كالندمان والحصول على رضاهم سهل لا يحتاج إلى اهتمام[2]، لأن الجيش ـ بنظر النظام ـ يجب أن يكون بمنأى عن السياسة وليس له حق التدخل فيها ليتفرغ قواده لإعداد الجنود للفتح فى الخارج وليستعد الجنود لحفظ الأمن والدفاع عن الوطن فى الداخل والخارج.

● أصحاب القلم: وهم الطائفة التى تحتاج إلى لطف التدبيربالنسبة لمنصب الوزارة كالجيش بالنسبة إلى عرش السلطان، فكما لا يستقر هذا إلاّ بالجند، فكذلك لا يسند ذاك إلاّ بأرباب الأقلام، ثم يورد حكاية وصية ـ عبد الحميد بن أحمد ـ لابنه فى ضرورة الموازنة بين مهام الدولة ودرجة كفاءة الموظفين بحيث يفوّض إلى كل واحد من الأعمال ما يتناسب وقدرته، وعدم جواز تركهم بلا عمل، لأن تجمعهم على أبواب السلطان يسبّب مفاسد كثيرة واضطرابات خطيرة[3]. ثم يمثّل أيضًا بقصة ـ أنو شروان ـ حينما سأل وزيره ـ بزرجمهر ـ مندهشًا متحيّرًا كيف كانت تذاع أسرار البلاط ولا يعلمها سواهما؟ فأجابه:

---

(١) الوصايا ص ٤٩.
(٢) الوصايا.
(٣) الوصايا ص ٧٠.

حينما ترسلون إليّ لنتداول فى أمور المملكة كان هؤلاء الكتّاب يتزاحمون على أبوابكم، يقلّبون وجوه الرأى عن أسباب ذلك إلى أن يصلوا الى السبب بتحليلاتهم ثم ينشرونه لذلك أرى أن يعهد إلى كل منهم بعمل مناسب.. ثم يعقّب «النظام» على هذه القصة بقوله: «والرأى عندى أن يدفع إلى من يتوسّم فيهم حسن الاعتقاد وصدق الوداد بعمل جليل. وهذا ضابط لهم ويزيد من محبتهم للوزير. أمّا الذين فى قلوبهم مرض من أوهام فاسدة فإنهم فريقان: فريق لهم مقام عند السلطان والأعيان، ويجب على الوزير أن يتظاهر بإعزازهم وإكرامهم ويقلّدهم مختلف الأعمال وينقدها أمام السلطان ويحمّلهم تبعات أفعالهم بحيث لا يتعدى ذلك إلى هلاكهم لأن فاعله مذموم شرعًا وعقلاً، ومرتكبه ملوم فى الدنيا والآخرة»، ويأتى لذلك بقصة ـ ناصر بن ميكال ـ واتهام الخواجة ـ أحمد ـ بمقتله قرب ـ بكتاباد ـ فى طريقه إلى غزنين، وتأنيب الأديب ـ الحصيرى له بقوله: «إن الدنيا لايمكن أن تخلو من ذوى الكفاءات، فعليك أن تسعى للتغلب والتفوق عليهم، وبهذا الطريق يتعين استحقاقك للوزارة لا أن تخلى الدنيا من منافس لك بالفتك والقتل فيتعين مركزك بحكم الاضطرار».. ثم يعقّب «النظام» على هذه الفكرة التى وجدت صدى حسنًا فى نفسه بقوله: «إن الإيقاع بالآخرين إيقاع بالنفس فينبغى ألاّ يجانب المرء محجّة الصواب ويقتنع بقبول التأويل وخداع الشيطان وتصديق المفترى فيهدر بذلك دم البرىء» .. ثم ينتهى إلى قولة السياسى الحكيم ينصح بها ابنه وهى: «إن من يصادق الجميع يستولى على الجميع»[1].

النقطة الرابعة: رعاية جانب الرعيّة:

ويوصيه أخيرًا بإرشاد السلطان إلى طريق الرحمة كما كان الوزراء من قديم الزمان ليشمل الرعيّة من ذلك الرفاهية ويصيب الملك حسن السمعة.. ثمّ يورد له قصة طلب السلطان ـ ألب أرسلان ـ جمع الأموال من الناس بمناسبة

(١) الوصايا ص ٧٢.

غزو بلاد الروم وتضجرهم من ذلك وكيف كان الحديث يدور فى مجلسه ذات يوم حول الموت والبلاء، وقال: «إنهما محتمان على المرء ولا يمكن دفعهما مطلقًا». فأجابه «النظام»: «يكون دفع ذلك بالعدل والرحمة». . واستشهد له بقصة قرأها فى تاريخ ـ ساسان ـ عن أحد ملوك العجم وبعد أن أتمّ عرضها على السلطان. . قال: «إن الأموال التى تهيأت من الرعايا لأجل الجيش أعيدوها ولا تتعرضوا لها». . ثم يختم حديثه بقوله: «وغايتى من إيراد هذا الكلام أن تصل عواطف الوزراء العادلين وشفقتهم إلى جميع الرعايا والتابعين».

بهذا ينتهى «النظام» فى وصاياه لابنه ـ فخر الملك ـ وهى ـ كما شهدنا ـ صورة حيّة تنطق بما كان يجول فى ذهنه من خواطر سامية ويختلج فى أعماقه من أحاسيس عالية. وهى بما يلوح عليها من سمات وترتسم على صفحاتها من خطوط وألوان تبدو لنا صورة يحوطها وكتاب ـ السياسة ـ إطارٌ واحد تلتقى فى داخله الخطط بالأفكار وتتجاوب فى جنباته العواطف بالتجارب. . وهى بناءً على هذا وذاك من مؤلفات ـ النظام ـ موضوعًا وشكلاً وإن دخلتها ريشة الفنان ـ الناسخ ـ فعملت فى تقسيمه وأضافت إلى تعابيره وربما أزادت فى حكاياته وحِكَمِهْ.

وممن يؤيدنا فيما وصلنا إليه ويذهب بنا إلى أبعد من ذلك أستاذنا ـ د/ يحيى الخشّاب ـ فى بحثه الأخير عن هذا الكتاب، إذ استنتج من حرارةالإيمان فى جمله وألفاظه، والصدق والصراحة فى تعابيره وقصصه ما يتفق وسيرة «النظام» كما وصفها المؤرخون، ومن استشهاده بالماضى القريب واختياره أمثلة من رجال العهد الغزنوى والبويهى استدل على أن وصايا «نظام الملك» هو الكتاب الذى صدر عنه حقًّا[1].

وهذا ما حملنا على أن نتعقب آثار الوزير ونترجم إلى العربية ما لم يترجم

(١) بحث ألقاه فى مؤتمر المستشرقين الرابع عشر، المنعقد فى ميونخ فى سبتمبر سنة ١٩٥٧م باسم معهد الدراسات الإسلامية نشر فى مجلة المعهد ص ٢٣٤.

منها، ونعرض أمام الباحث خلاصة لأهم آرائه فى الكتابين لنـتكمل صورة دولته المنشودة، ولنتبين وجه الصواب فى نـسبتها للمؤلف، وربما كان يكفينى منها أن أذكر أسماءها، وأن أقصر جهدى على وصفها وتاريخ تأليفها، ولكنى رأيت أن فهمنا للوزير سيبقى ناقصًا وحكمنا عليه أو له سيكون خاطئًا ما لم نستعرض مذهبه السياسى وهو يسجله بقلمه حينما يدير دفة الحكم، كما عرضنا لمظاهر سلوكه الاجتماعى فى الحرب والسلم.. وليس من شك بأن هذا النقص سيبقى ما لم نـستمر فى عرض ما تبقى له من آثار، واستعراض ما تضمنتها من أفكار.. ومن أهمها رسائله وأماليه فى الحديث.

* * *